القراءة بين الفاعلية والفعل
قراءة في (فن القراءة) لـ علي عبد الحميد الفاخري أنموذجاَ

د.هدى رجب محمد العبيدي*

القراءة الفاعلية:

تكاثفت الجهود حول ما سمي بنظريات القراءة والتلقي، وراح أتباع المدرسة الألمانية ينادون بالبحث في العلاقة بين القارئ والنص ، بعدما كان الاهتمام منصباً على كشف الروابط القائمة بين النص والمبدع ، وقد عرض (حسن سحلول) في "نظريات القراءة والتأويل الأدبي" المنهجين اللذين تفرعا عن مدرسة تحليل (كونستانس)؛ حيث يُعنى الأول "بعلم جمال المتلقي" وأبرز ممثليه هو (هانزروبت جوس)، بينما يهتم الثاني بفرضية " القارئ الضمني أو القارئ المستتر " ويقوده (يزير)Wiser. حيث انصب اهتمام الأخير على تحليل أثر النص الأدبي على الفرد والقارئ منطلقاً من أن القارئ هو الهدف والغاية الكامنة في نية المؤلف حين يشرع في الكتابة(سحلول ، 2001 ، ص3-4).

أما الإيطالي (أمبيرتو إيكو) UmbertoEco فقد اقترح،عام 1979م،تحليلاً يسمى "القراءة المتعاونة أو المستجيبة"، متخذاً آلية برمجة النص لشكل تلقيه ، ودراسة ما يقوم به القارئ ، ويقصد بالقارئ هنا الواعي المثقف" (سحلول ، 2001 ، ص 4 .)،فالقارئ شريكٌ للمؤلف في تشكيل معنى النص وما يتضمنه من فاعلية.

ولقد نادى (بارت) بموت المؤلف، ووهب الحرية للقراء الذين تختلف كفاءتهم، كما تتباين طاقات النصوص ، إذ أنه ليس هناك ما يسمى بالتفسير النهائي ولا توجد منهجية بعينها لقراءة النصوص لكي يحتذي بها القراء نستطيع أن نسميها المنهجية الأمثل ، فالقارئ حرّفي أن يدخل النص من أي جانب ، وليست هناك طريق واحدة تعد أسلم الطرق لمقاربة النص، "وهو حر في أن يفتح معنى النص ويغلقه دونما اعتبار المدلول، بل إنه حرٌ في أن يمتع نفسه بالنص عندما يجعل الدال يحوم حول المدلول، دون أن يثبت عنده ، مهملاً في ذلك قصد الكاتب ، وعندئذ تعد المتعة الحاصلة من النص أهم كثيراً من مجرد الوصول إلى المعنى الذي يمكن أن يستشف منه"(البحيري ، 1997 ، ص 162-166).

ويكون بذلك قد أسقط كل النظريات والمناهج التي تتعامل مع المنتج والنص بشكل خاص، علماً بأن هذه النظريات والمناهج أسست على فلسفات مختلفة كانت المعين لتقديم الإجابات حول تساؤلات ما

* عضو هيئة التدريس بقسم اللغة العربية – الأكاديمية الليبية

تلبث أن تثير الباحثين بعد فترة ، حين يدركون أنها لم تفِ بما كانوا يطمحون إليه ، فيرتدون باحثين عن فلسفات جديدة ، وتنقلب النظريات السائدة رأساً على عقب ، فالنص الأدبي بشكل خاص، والنصوص القولية بشكل عام ، بعضها معقد ومتشابك، بل قد تستنفذ معانيه تفاسير عدّة، وهو(النص)متمثلاً في كل تفسير، وكل قراءة تشكل جزءاً من المعنى اللانهائي وتعكس قدرة القارئ على النفاذ إلى عالمه وفهمه، والمقصود بالفهم هنا مشاركة القارئ المبدع في تبادل الفكر الذي يقدمه المبدع له فتكون الفاعلية، فإذا استطاع المبدع الفاعل أن يقدم أدباً، وفاعلية فلابد من أن يؤثر في المجتمع ولو بعد حين .

ويتراوح تأثير النص من متلقٍ لآخر، كل حسب بنيته، تناسلية كانت أو برجوازية، أو خلاقة حسب نظرية الفاعلية (للشيخ محمد الشيخ) ، وذلك بما تحمله اللغة من تأثير يتمثل في الأسلوب ، والألفاظ، والعلامات، والتراكيب التي تساق من أجل بث فاعلية معينة، فإذا تعددت قراءة النص ،واستطاع النص أن يخاطب البنى الثلاث مجتمعة – كالنص القرآني الذي تكمن معجزته في فاعليته وقدرته على استيعاب ومخاطبة جميع البنى دون تفاوت، عندها يستمر النص ويحيا،بين هذه البنى بسلام، دون رفض أو تمرد يذكر، لأن كل بنية تشعر وكأن هذا القرآن جاء ليخدم مصالحها ويحفظ لها حقها.

فإذا علمنا أن النص ملك المتلقي، كما أن النهر هو ملك للمصب وليس للمنبع، فإن العبء يقع على كاهل القارئ في أي زمان ومكان، من أجل تصدير فاعلية بعينها، ربما تخالف بنية مبدع النص وقصديته – ولمزيد من الإيضاح – فالنص المكتوب خطاب لم يتم فض شفراته من قبل القارئ، وإذا تناوله قارئ فإنه يتعامل معه بما يمتلك من ثقافة ، ووعي، ومعجم لغوي، ومخيلة خصبة ، وهذه تعتبر (أدوات البث)، أما النص فهو عبارة عن رسالة صادرة عن مبدع يقوم ببثها عبر موجة البث (الفضائية) إلى متلقٍ، فمدى التقاط القارئ لموجة البث من النص، بين صفائها ووضوحها، وبين التشويش الذي يصيبها من خلال دفاعات بنية المتلقي، يكون مدى أثر تصدير النص لفاعليته، ويتجلى مدى قراءة المتلقي لهذا النص.وإضافة إلى ما سبق يمكن القول: إن ذلك النص عندما يولد كتابة، أو قراءة، أو أداءً، يتفاوت في تأثيره على المتلقي، أما (النص المستخرج كعمل مرئي) فله تأثير على المشاهد بما فيه من فنيات تتمثل في الصوت ، والصورة، واللغة ، والإضاءة ،... الخ.

القراءة الأداء (فنّ الإلقاء):

نأتي إلى (النص الأداء) أي الذي يقوم مبدعه بإلقائه، فله دورٌ آخر، بما يحمل من مؤثرات تثري وتزيد من نقاء الصورة، حين يكون هذه الأداء متوافقاً مع المعنى، متوافقاً مع الإيقاع ، متماهياً مع أثر الصوت في المتلقي، كما هو الحال عندما يتم التفاعل مع (النص الأغنية)، بمؤثراتها الصوتية ، والأدوات الموسيقية، ومؤثرات إخراج الأداء، فإذا ما جردت كلمات الأغنية من كل ما سبق ذكره فلن تجد

من يستسيغها، وينفعل بالرسالة المضمنة فيها، وكأنما المغني والموسيقار يمنحانها جناحين تحلق بهما في فضاءات التلقي .

وعندما يكون الحديث حول النص الروائي، تتدخل عناصر جديدة في الأداء، وتتنوع فيتشارك أكثر من فرد في عمل واحد من أجل إيصال فكرة، أو بعث رسالة ذات فاعلية محددة (إما تناسلية ، وإمّا برجوازية ، وإمّا خلاقة)، فكاتب السيناريو قارئ، والمخرج قارئ، ولكلٍ أدواته، وصلاحياته، التي تمكنه من إبداع نص جديد، ربما يتفق مع رؤية المؤلف، وربما يختلف، ومن ثَمْ يأتي دور يترتب على عنصر ثالث، وهو المتلقي، الذي يقوم بدوره بقراءة شفرات العمل الفني وتفسيرها وتحليلها، فتكون رؤيته ربما متماهية مع مبدعي النص؛ الكاتب والمخرج ، وربما لا.

وبقوة إخراج النص وتأثيره، وقدرته على إحداث حراك في بنى الوعي لدى القارئ، بحيث يتمثل البنية التي يتواءم معها للعمل على إثرائها، هنا فقط يكون النص مقنعاً، وباثّاً ومصدراً للفاعلية ... بمعنى أن الموجة الأثيرية التي يبث عليها النص فاعليته تقوم بإحداث هذا الحراك لدى القارئ ليتلقى النص بفاعلية على ذات الموجه، أما إذا لم يستطع النص إحداث هذا الحراك ، فإما أن يكون غير قادرٍ على بث الفاعلية ، ومن ثَمْ يكون نصاً ضعيفاً من حيث بنيته اللغوية ،أو التركيبية ، أو إحدى فنياته، أو يكون المتلقي متصلباً على بنيته، غير المتوازية مع النص ، وبذلك إما أن يقوم بمنحه معنى البنية التي يحتازها وطبيعتها، حتى ولو كان خاطئاً ، وإمّا أن يصرف النظر عنه ، نصاً غير فاعل ، وليس به أي إبداع.

ومن هنا تتنوع القراءة وتختلف باختلاف القرَّاء، ومدى حراك بنى الوعي لديهم أو تصلبها، وثقافة القارئ وحدها هي التي تجعل البني أكثر قدرة على الحراك، وانعدام هذه الثقافة يجعلها أكثر تصلباً وجموداً، أو قدرة النص على إجراء هذا الحراك بما يحمل من قوة إقناع وإبداع ولغة، وإذا كان اتفاقنا سلفاً على أن النص الأدبي موجه إلى متلق، أو إلى بنية اجتماعية بعينها أو إلى كل البنى المعنية من جهة أعم و أشمل .

القراءة الفعل :

إن كل قراءة هي علاقة بين قارئ وكاتب، وهو ما يضع العلاقة في وضع التعاقد على تواصل تتحكم فيه اللغة ، ويتم التعبير عنه أيضاً باللغة.

وقد يحدث أن تتحقق القراءة في صورة شريط سينمائي أو لوحة من اللوحات الفنية ، لولا أن التعبير يتم عنها بواسطة اللغة ... لذالك اعتبر المفتاح التحليل الأساس : اللغة.

حيث يتحكم في العلاقة بين القارئ والكاتب " مكون الاختيار " وهذا يرتهن إلى قيمة من القيم أو إلى عنصر الذوق بحثاً عن المتعة مثلا " فالقراءة نشاط متعدد الوجوه ، هي نشاط عصري وفيزيائي إضافة إلى أنها نشاط معرفي ونشاط عاطفي ونشاط حجاجي ونشاط رمزي "أو باعتبار النص دلالات قاتمة يقوم المتلقي بقراءتها وفق برمجية وخلفيته الثقافية ومنهج قراءاته ، فقط برز أشكال في مدى تعدد القراءات ونهائيتها أو لا نهائيتها(عبد الرؤوف السيد ،2007، ص 30)، فالنص إن كان يجيز لنا قراءات كثيرة " فإنه لا يأذن لنا أن نقرأ كما نشاء، وكيفما اتفق حسب أهوائنا، إذ لو جاز لنا أن نقرأ كما نشاء؛ لتساوت النصوص جميعاً، ولاختفت الحدود بينها"(سحلول ، 2001، ص 3).

قد يكون الاختيار وليد لجنة مؤلفة من أساتذة، وكتاب يشرفون على انتقاء النصوص الأدبية للصفوف الدراسية ، بناءً على قيم دينية ، ووطنية ، وقومية ، وأدبية ، ومن ثم فاختياراتهم يتحكم فيها مكون الذوق، بالإضافة إلى مبدأ التربية والتكوين، الذي يعد المكون الرئيس المشكل لثقافة الأساتذة، التي تحدد القيم والمعايير المتجذرة داخل الفرد والمجتمع.

إن سلوك الإنسان من المهد إلى اللحد تشكل باستمرار وفق معطيات ثقافة الجماعة ، وبالتفاعل مع مؤسسات التربية والتنشئة من عائلة ومدرسة، كما تؤثر في تكوينه أنماط الثقافة الواسعة التي تشمل الأعراف والعادات والتقاليد بوسائل الاتصال مما يسهم في عملية تطبيع تتولاها تلك المؤسسات الأولية، فالطفولة هي فترة التطبع، وما يربى عليه الطفل هو الأساس، سواء في الفعل أو في ردات الفعل في طابع شخصيته المستقبلية .

وقلّما نجد ذلك في المجتمعات العربية التي يتكون أغلبها من عامة الشعب الساعية وراء القوت اليومي على حساب الأطفال وهم في أخطر المراحل سناً وتلقيناً ، مما ينعكس سلباً على حياة المجتمع بأكمله وتكاد تنعدم التربية السليمة وإدخال مدخلات إيجابية ترفض بمستوى ثقافة المجتمع ، أللهم إلاّ من كان له إرادة وعزيمة، تسهم بشكل أو بآخر في تغيير حاله من الأسوأ إلى الأحسن، وهذا شيء نسبي على ما أعتقد.

القراءة والثّقافة:

يجرنا الاسترسال في الحديث عن القراءة وفائدتها إلى قضية أشمل وأوسع، وهي تكوين ثقافة الفرد التي تنعكس إما بالسلب أو بالإيجاب على المجتمع على حد سواء، فنجد بأن قيمة من يتجه ويميل في قراءاته إلى التطرف في الأفكار ليس بأفضل حالٍ من الجاهل الذي يتعمد عدم القراءة، وربما يكون الأخير أرحم ممن يستخدم ويوجه دون إرادة ووعي حيث يتشدد (إريك فروم) " (زهران ، ع 140)على أن نمط الحياة الجماعية ينجم عن مزيج ثقافي مركب من عوامل تاريخية، وسياسية، واقتصادية، واجتماعية،

ونفسية ،وهذه الثقافة تظهر عن طريق الأفكار، والمواقف التي ترسم شخصية الطفل بين العائلة والمدرسة أيضاً، وغير الجماعات العديدة التي يعاشرها الطفل إلى أن يصبح مراهقاً، وحينما يطلّع الإنسان على ثقافة مجتمعة يقرر البقاء في تلك البنية أو يقرر الانقلاب الذي لن يكون هيناً، متعرضاً لكافة أساليب الجذب والإسقاط، فإذا كان حاملاً لمشروعه مدافعاً عنه بكل ما أوتي من إرادة وعزيمة فإنّه ينفلت، وإذا لم يكن كذلك استطاعت البنية اجتذابه إلى فضائها ومن ثم ضعف وجبن وعاش مغترباً بلا هداية وبلا بنية تحتضنه وتحميه، عقاباً وانتقاماً ليكون عبرة لغيره، حتى لا يفكر أحدٌ في الانفلات والهروب، وبذلك تتكون البينة الثقافية السائدة قد قامت بدورها في التسلط، وربما تكون أقصى أنواع السلطة .

إن الحديث عن القراءة، هو ما يحيلنا إلى الحديث عن مكونات الثقافة، ثقافة الفرد التي ستجعل منه إنساناً حاملاً لمشروع نهضوي وليس مجرد قارئ سلبي – متلقيًا منتجًا ، فعلاً وفاعلية، حيث اختيار نوع المقرر والذي يتأسس على سلطة الإجبار؛ذلك أن القارئ، المربي والتلميذ، مقيدان ببرنامج ينعدم فيه شرط الحرية ويحضر فيه مبدأ التوجه العام، لما يجدر أن يكون عليه التعلم، ومن ثم فإن طريقة التحليل تلتزم بما يريده المعلم والاستاذ والمراقبة التربوية في ضوء كونها عصا على الرقاب، أي إنه يتم الحد من مبادرة التلميذ بدل تفعيلها، وتتجسد وظيفة القراءة بدون هدف.

لذلك فإن كان القصد هو الفرد، فإن في كل نص ثمة معنى للكاتب وآخر للقارئ ؛الأول: يتحقق إدراكه عن طريق القراءة ، مادام غير مدرك ولا يمكن توقعه ، أو استيعابه.

بينما الثاني : حصيلة المرجعيات المتملكة من لدن القارئ، وهي التي ينجح للوصول إلى تقييم كفاياتها، هذا إذا كنا نتحدث عن قارئ له مرجعيات.

فماذا إذا كنا نعاني من عدم وجود قرّاء من الأساس، متسائلين عن أسباب العزوف عن فعل القراءة الذي بات واضحاً ما دفع د.علي أحمد عبد الحميد وضع تساؤلاته بين دفتي كتاب بعنوان "فن القراءة"، وهذا ما نحن بصدد التعريج لعرضه،والوقوف عند أهم محطاته، حرصاً منا على تبيين ، ما لهذا الكتاب من أهمية،تعود على النشء، وحملة الشهادات المفرغة من مضمونها وما أكثرهم من حولنا.

القراءة فنّ:

فن القراءة" يقع في مائتين وأربع وعشرين صفحة، يتناول موضوع القراءة كأحد أهم أبواب الرقي في أية أمة، إنه يتناول موضوع القراءة كفعل سلوكي ينعكس تأثيره على أية أمة، أو مجتمع، لأنه يتخذ القراءة كقانون تتمركز حوله كل عمليات النهضة، والكتاب في طبعته الثانية ، يمثل قراءة في عقلية المواطن الليبي الذي وعى أهمية القراءة، فكان أن أقبل على هذا الكتاب في طبعته الأولى، التي نفدت

في زمن قياسي، ممادل على أن الشعب الليبي شعب قارئ، لو توفرت أمامه المعرفة التي تستحق (الفاخري، خلة 2013) .

حينما تلقفت هذا الكتاب الذي أمدني به صاحبه مشكوراً ، فقرأته بعناية، وصنفته فوراً على أنه كتاب منهجي تلقيني أو إرشادي، يبدو ذلك واضحاً من الوهلة الأولى عنواناً وتفصيلاً من خلال مباحثه السبعة عشر.

"إذ لا يمكن الإدعاء: بأن هذه المحاولة ناتجة عن تجربة قرائية عميقة، تدّعي لنفسها أن تكون الفيصل في هذا الشأن، فإنه يمكن القول إن مطالعة تجارب الآخرين المبثوثة هنا وهناك على نحو ناقد، تفيد إذا ما ضُمّت إلى تلك التجربة الناقصة المتواضعة، هذا مع ما يمكن الاطمئنان إليه من أن إدراك هذه المشكلة (مشكلة الناشئة مع القراءة) يبدو مسوغاً كافياً للتجرؤ على معالجتها"(عبد الحميد ، 2013 ، ص18).

هكذا كانت مقدمة كتاب فن القراءة مما يجعلنا نصنفه تلقائياً على أنه كتاب تربوي إرشادي، محرض على فعل القراءة؛ للوصول إلى فاعليتها، فلا تكون الاستنتاجات إلا بالمعطيات، ولا المخرجات إلا بالمدخلات، وهنا أنبه إلى أن الاستطرادات الواقعة في الكتاب، والتي كثيراً ما تتحدث عن الكتب ذات العلاقة بأصحابها ،إنما كانت بقصد أن يعيش القارئ في أجواء الكتب وأحاديثها ، لأنه إذا كانت قراءة الكتب لذة ومتعة ، فالحديث عنها كذلك أمتع اللذات.

لقد مر علينا من يتميزون بذكاء وصفاء ذهن في أوائل أعمارهم، لكن ما إن يتقدم بهم العمر وينشغلون في مجريات الحياة، ويتركون التقرّي خلف ظهورهم حتّى تجد جمرة ذكائهم قد خمدت ، إن لم يكن مع هذا تغافل وبلادة.

إن قراءة الكتب هي التي تبني عند الإنسان لغة العلوم، وعنها يعرف طريقة الأسلوب وتأليف الكلام المتبع فيها.

لقد تعاملت فئة من القراء مع الكتب تعاملهم مع المصادر والمراجع، فلم يقرؤوها كاملة، وإنما اكتفوا بالرجوع إليها في حال استغلاق كلمة، أو توضيح مبهم، أو كشف عن موضوع .. أو سوى ذلك، وقد تمر الأيام ولا يفتح أحدهم كتاباً فضلاً عن قراءته ،حيث الحاجة إليها مفقودة ، ولهذا استعاض هؤلاء عن الكتاب بالأقراص الحاسوبية؛ لأنها قريبة التناول، ورخيصة الثمن.

وفئة أخرى جعلت القراءة ديدناً، وعمرت أوقاتها بها، ولكن مع هذا الحرص لم تجد الفائدة المتوخاة منها بالمقارنة مع الوقت الذي تقضيه فيها، وما درى هؤلاء أن القراءة لا تقف على كثرة ما يقرأ ، وإنما

على كيفية القراءة ونوع الكتاب، وكيفية العيش معه والتروي منه أشد الرواء!!!، ذلك أنه كلما كانت القراءة فعّالة أكثر؛ كان النتاج المحصل منها أكبر وأغزر.

لذا فإن السؤال المهم الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا دائماً : كيف نقرأ قراءة فاعلة مثمرة ؟

وبين هذا وذاك ، بين القراءة الفعل، أو فعل القراءة، وبين القراءة الفاعلة ،أو فاعلية القراءة ، وجب علينا التنبيه أن البون بينها شاسع.

وحتى نقدم قراءة لكل القراءتين أو لكلا النوعين من القراءة تحليلاً وقراءة، ستحاول الاختصار ، فالإكثار هدر، و الإيجاز عِي ، إذا ، خير الأمور أوسطها.

وفي أثناء تصفحي لكتاب " فن القراءة " وجدت أن صاحب الكتاب لم يغب عنه أن يتطرق لما ذكرناه آنفاً ، يقول " أمّا المشتغل بالعلم، والمتبحّر فيه، فهو متجاوز لتلك الحاجة بطبيعة الحال، وأما المتعلّم، فهو محتاج في بداياته إلى ما يمكن أن يعينه على معرفة الطريقة التي يبدأ بها القراءة، وكيف يفيد من كل ما يقرأ، وكيف يتمكن من التفريق بين الأنماط المختلفة للقراءة؛ مثل تعلّم اللغات، والقراءة في إطار التخصص، وقراءة الأعمال الإبداعية، والقراءة البحثية، ثم القيام بما يمكن أن يُدعى (عملية التثقيف الذاتي)، وكيف يفكر أخيراً في بناء مكتبة تفي ببعض حاجاته من حيث هو قارئ ، قد أصبحت القراءة جزءاً من صميم حياته ، ثم كيف يشرع في تنفيذ ما فكّر فيه" (عبد الحميد ، 2013 ، ص 18).

غير أنه يذكر أنها محاولة ناتجة عن "تجربة قرائية " (الحميد ،2013، ص 25-32) فهل نفهم بأن هذا الكتاب يجسد تجربته الشخصية مع القراءة؟ أم هي تجربة قرائية بعيدة عن فهم الواقع المعيش لمن قدم إليهم هذا الكتاب؛ للإفادة منه، وتبيع أثره من أجل الاستنتاج إلى أن " القراءة فن " أم إلى " فن القراءة"؟، بذلك نكون قد خرجنا من حيرة لندخل غيرها.

فما الفرق بين" فن القراءة "و" قراءة الفن " ؟

لنسلم بأن هذا الكتاب بعرضه للفصول والمباحث ذات الطابع المنهجي التلقيني التوصيفي الإرشادي قدم لنا " فن القراءة " ، ولكن لو أن الباحث سرد لنا نتيجة تجربته الشخصية مع القراءة في شكل رواية، أو سيرة ذاتية لكان أجدى، فهو غني عن التعريف، ولست هنا بصدد انتقاد شخصه الكريم، وإنما تعاملي فقط مع هذا الكتاب، الذي يبعد عن القراءة " كفن " فنحن أمة(قرأ) التي لا تقرأ، وتحديداً لا تقرأ ما يعمل الذهن بشكل يمكن توظيفه فيرتد بالفاعلية والإيجاب في شتى نواحي الحياة، وإذا كان الأمر كذلك، فإن القراءة ستخلق مني ومنك قارئاً متأثراً فاعلاً مغيراً، فهي لن تكون فناً وإنما التنفس بالقراءة، لخلق مناخ مؤكسج يمكّن كافة مكونات الإنسان ، من جسد وجنان ووجدان في حالة حياة دائمة، حتى ما بعد الحياة،

خلود ما بعده خلود، ليتضح بأن فن القراءة، هدفه الإطلاع للخلوص إلى اختيار وانتقاء (كتاب)، والانتهاء منه، دون النظر إلى فاعلية هذا الكتاب، وإنما استعراض لفنيات وتكنيك القراءة، وتقسيم الوقت ومهارة إدارته؛ للانتهاء منه،وتجميع كمية كبيرة من القراءات، منها الغث ومنها السمين ، بلا فاعلية بلا نتيجة في واقع الفرد والمجتمع، إلا لمجرد الحصول على لقب مثقف، أو مبارٍ، أو محاججٍ ليس إلاّ، في ذات الفترة تحصلت على كتاب عنوانه " قراءة القراءة " مما أربكني في البحث عن ضالتي التي اعتقدت بأنني لن أجدها، فبمجرد العثور عليها، انتهت متعة البحث التي جُبل عليها الإنسان، لأنه ومن المتعارف عليه، بمجرد الحصول على ما نريد، تنتهي المتعة ، وأنا كباحثة أجد المتعة في البحث اللامتناهي، وكأن الملاذ الوحيد للعقل المتسائل، هواللاملاذ، وهكذا، فإننا نسعى للشمس، ولغدٍ ، ولسرابات الشهوات والملذات، حتى يتيقظ الذهن ويتعس بمجرد الوصول، وإذا لم يكن الأمر كذلك ، لما استمر التفكير البشري في الاكتشاف والإبداع ، وتوقف عن الطمع في المزيد، ومنعاً للاستطراد الذي لا طائل منه، فإنني تحصلت على هذا الكتاب " قراءة القراءة " ل فهد بن صالح الحمود (الحميد ،2013، ص 25-32)،الذي لا يبتعد كثيراً في طرحه عن كتاب(فن القراءة) ل (علي أحمد عبد الحميد)، الذي أجاب عن الكثير من التساؤلات، أهمها الفرق بين قراءة الفعل وقراءة الفاعلية.

ولا شك في إن لكلا الكتابين نكهة تفتح شهية الناشئة، مع القراء، للقراءة، ما جعل لهما مسوغاً كافياً للتجرؤ على معالجتها، على رأي علي عبد الحميد في مقدمته للطبعة الثانية لكتابه سالف الذكر.

منهجيّة الكتاب:

يتكون الكتاب من مقدمة وتمهيد للخلفية التاريخية لعادة القراءة، وسبعة عشر مبحثاً، وخاتمة كالآتي :

- (نحن والقراءة) (مجلة العربي ، أكتوبر 2002 ، ص 168)" قدر لرجلك قبل الخطو موضعها" (مكتبة العبيكان ،ط الثانية ،لسنة 2006)

انطلق من واقعنا الأليم، واستعراض التوجيهات اللّازمة، والوقوف أمام أهم المشكلات التي تواجه من يريدون اقتحام هذا الدرب . (عبد الحميد ، 2013 ،ص 25)

بعدها قدم مقترحاته في الحلول، مطلقاً عليها الخطوة الأولى، بذلك اتفق مع كتاب (قراءة القراءة) الذي ابتدأ بخطوات القراءة . (فهد بن صالح الحمود ،2006 ، ص 31)

لكن الأخير غير كتاب (فن القراءة) فقد فصّل الحديث عنها ، موجزها :

الاحتساب – التأسيس أولاً –الهدف –التعرف على الكتاب – التعرف على المنهج والفن – التركيز – المساعدات الخارجية – توضيح الجمل وتدوين الفواصل – تدوين الفوائت – التأمل – النقد – العمل .

ثم تطرق إلى أشتات وآفات ، مختتماً، بذكر نجائب الكتب التي ينصح بقراءتها .

أما كتاب فن القراءة فلقد حذا حذو الكتب المنهجية، أي أنه كان يدرك بأن المستهدفين هم النشء، ومن ليست لهم علاقة بالبحث العلمي، والصولات والجولات بين أمهات الكتب.

منهجية غير معهودة في سوابق (علي أحمد عبد الحميد) الدكتور، والأستاذ في تخصص اللغة العربية، من أبحاث وكتب علمية، أدعي بأنني أطلعت على معظمها، وهو بذلك يسهل الأمر على من لا قابلية لهم لفن القراءة، والذين لا يدركون بأنه يجرهم إلى الجنة جراً، حتماً هم لا يعلمون، وإن علموا لحرمنا نحن من هذا المؤلَّف، الذي يشكل إضافة لمكتبتنا العربية، والمكتبة العامة على وجه الإطلاق، التي ليست بمعزل عن بعضها البعض، فمصائب قومٍ عند قوم فوائد.

نعم ، وإذا حق لنا أن نطلق على من لا يقرءون بأنهم مصابون بمرض، فنحن مسؤولون بشكل أو بآخر، لكونه تقع على عاتقنا مسؤولية التعليم كرسالة وليس وظيفة، أنا أعمد من وراء هذا البحث، أن ألفت الانتباه لقيمة كتاب (فن القراءة)، وغيرها من الكتب ذات الصلة، التي يجب أن توزع في الصيدليات بوصفة طبيّة كمادة للاستشفاء؛ لا تختلف عن الوصفات ذات الطابع العضوي بل تكاد أهمها على الإطلاق .

- وعود على ذي بدء ،فإن صاحب (فن القراءة) تطرق إلى "أنماط القراءة" (عبد الحميد، 2013 ، ص33-44) من خلال مفاهيمها المتعددة وعاداتها ، معرجاً إلى القراءة الحرة وقيمتها.
- وفي المبحث الثالث شرع في وضع (الخطوات الواثقة) (عبد الحميد ، 2013 ، ص 45-62)على طريق القراءة، وذلك بدراسة الإمكانات الأولية تليها التراكم المعرفي والذكاء، منبهاً بلمسة الأب الحنون، حيث يتضح ذلك جلياً في عنوان جانبي(لا خوف من الخطأ) (عبد الحميد ، 2013، ص 58-62)، وهذا ما يحتاجه النشء، ولا أخفيكم ، كما نحتاجه نحن أيضاً .
- في المبحث الرابع حاول لجم الخطوات، وتقييدها؛ خوفاً من الضياع والتيه، (فأبعدنا عن المزاجية) (عبد الحميد ، 2013، ص 63-64)،مراعياً بأنه يخاطب فئة لا تطيق مع ذلك صبرًا، وخلق جسور تجمع بين رأسين بالحلال (النشء والقراءة)، ارتباطاً يشكل عقداً أبدياً يثري الحياة علمياً وإبداعيا وخلاقاً وفاعلاً؛ ليصل بفنه الذي ادعاه من وراء اختيار عنواناً هو (فن القراءة) وهي القراءة كفن وليست القراء الفاعلة والمنتجة ، مرفداً بعنوان جانبي (التعامل الحميم مع الكتاب) (عبد الحميد ، 2013، ص 73-78) .

❖ في المبحث الخامس (أدوات القراءة) (السيد ، ديوان الحروف ، 2007 ، ص12) نوه الكاتب إلى الحرف كرمز للغة لأن " الضاد تمسح زمناً في الصحراء " (عبد الحميد ، 2013 ، ص 79-81) . آمراً إيانا بامتلاك ناصيته ليعري نفسه كونه أستاذاً وتربوياً مهتماً ومغتماً على ما وصل إليه حال اللغة العربية، ويبدو ذلك واضحاً جلياً في عنوان جانبي (خذ الكتاب بقوة) (عبد الحميد ، 2013، ص 81-82) ، وكأنه يزمجر، بعد أن كان قد استخدم لغة هادئة في الترغيب، ليطل علينا ناهراً مرهباً، لغة أبوية في ظاهرها الأمر، وباطنها حنوٍ وودٍ ؛ ليجرنا لفنه، أقصد لجنته بالسلاسل، يليه أمرٌ (علّم بالقلم) (عبد الحميد ، 2013، ص 19-20)، وهنا أود أن استحضر نصاً فحواه "لعل مما يتبادر إلى الأذهان أن تاريخ القراءة هو تاريخ الكتابة"(عبد الحميد ، 2013 ، ص20)، ويستطرد الكاتب في الشرح إلى أن يصل إلى نتيجة فحواها " أن الكتابة وسيلة والقراءة هدف، والهدف سابق للوسيلة من حيث الوجود الافتراضي على الأقل ،ومقدماً عليها في التفكير، بل في تاريخ الفكر الإنساني على وجه العموم" (عبد الحميد ، 2013، ص 89-96)

❖ في المبحث السادس تطرق الكاتب إلى (القراءة والوسائط المتعددة) (عبد الحميد ، 2013، ص 97-109)،ليليه في السابع (أوقات القراءة) (ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، دار المشرق ، بيروت ج 16 ، ص 75)، وهنا قليل من الترغيب فالأمر جلل، فعندما يتطرق الحديث إلى الوقت ، الذي يموت ويستنزف في غير محله، كان لابد له من أن يجرنا جرًّا ناعماً حتى لا ينفر النشء والمستهدفون من وراء هذا الكتاب، مستعرضاً لبعض من الأمثلة من حيوات العلماء كالجاحظ "الذي كان يحضر لمجالسة (الخليفة العباسي) المتوكل ، فإذا أراد(الخليفة) القيام لحاجة، أخرج كتاباً من كمه، أو خفّه، وقرأه في مجلس المتوكل، إلى حين عوده إليه حتى في الخلاء" (عبد الحميد ، 2013، ص 97-109) .

❖ في المبحث الثامن(عبد الحميد ، 2013 ، ص 111-112)خاطب النفس الملولة والمتعذرة، والمحتجة، والمتحججة، كأنه كان مدركاً لأهم التفاصيل التي تقف حائلاً دون القارئ وكتابه، قاطعاً الطريق أمام كل حجة، وإذا بي أراه ضاحكاً مستهزئاً من الكسالى أمثالي ، قائلاً "من الممكن أن تقرأ وأنت جالس" (عبد الحميد ، 2013 ، ص 112-113) أو " أن تتخير أوضاعاً أخرى "(عبد الحميد ، 2013 ، ص 114-115) مطأطأً الرأس بابتسامة ساخرة وهو يقول (لا خوف على البصر) (عبد الحميد ، 2013 ، ص 163-185)، وهذه حقيقة وقفت عليها أثناء مرافقتي للدكتور، والباحث (علي أحمد عبد الحميد)، فلقبته (دودة الكتب) ، إعلاءً وليس إقلالاً من شأنه، فهو لا يرتدي نظارة بصرية، ولم يضعف بصره، رغم أنه يتنفس القراءة ، منبهاً للآثار الإيجابية المرتقبة، والتي لا تحدها حدود؛ "كالثقافة العامة وتكوين الشخصية" (عبد الحميد ، 2013، ص 187-188)، "فأول الغيث قطر " (عبد الحميد ، 2013، ص 189-196).

❖ منتقلاً في مبحثه الرابع عشر إلى " متعة تكوين المكتبة الخاصة " (عبد الحميد ، 2013، ص 207-213) التي تعبر عن ثقافة مقتنيها من حيث الانتقاء، والترتيب لجعل البنية تعيد إنتاج نفسها، بهدف خلق جيلٍ واعٍ، قارئ، من خلال الأطفال، فأفرد مبحثاً عنوانه "أطفالنا والقراءة" (عبد الحميد ، 2013، ص 207-210) "محذراً من

التنفير " (عبد الحميد ، 2013، ص 211-214) وذلك " * بخلق أجواء للقراءة " (عبد الحميد ، 2013، ص 210-211) ولا يمكنك فعل ذلك ما لم تكن "أنت القدوة " (عبد الحميد ، 2013، ص 117-125) فكل مولودٌ يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه و ينصرانه ويمجسانه " (عبد الحميد ،2013، ص 127-139).

❖ في المبحث التاسع (عبد الحميد ، 2013، ص 141-151) والعاشر (عبد الحميد ، 2013 ، ص 153) والحادي عشر (عبد الحميد ،2013، ص 155-156)، تطرق للقراءة التخصصية، والقراءة الإبداعية مفرقاً بينهما على أسس منهجية بحثية، لها علاقة مباشرة برواد الكتاب قصراً وغصباً ، وهي مراحل متطورة من حياة الإنسان الباحث عن الوظيفة أو من يتعامل مع البحث والكتاب كشرٍ لا بد منه، ولا مناص من الهروب تحت وطأة أي ظرف، فإما الكتاب وإما الكتاب .

❖ في المبحث الثاني عشر (عبد الحميد ، 2013 ، ص 157-162)، والثالث عشر، انتهى إلى كتابة وصفته الطبية بعد أن شخّص المرض، وقام بتحاليله المتعلقة بالجسد والوجدان والجنان، النفسية منها والعضوية ، إلى من أصيب بفقدان الشهية للقراءة كالشرود الذهني [45]والملل [46].

الخاتمة:

في نهاية هذه القراءة، نصل إلى إن فاعلية المبدع تلاقحت مع فاعلية البنية اللغوية للكتاب ،مما ولد فاعلية المتلقي المتمثلة في هذه القراءة المتواضعة ل فن القراءة للوصول بها إلى قراءة فاعلة خلاقة ..فالفاعلية لا تصدر إلا الفاعلية.

* تخريج الحديث الراوي أبو هريرة ، البخاري ، ص 4775 ،متفق عليه ،والحديث ذكر في كتاب فن القراءة دون إحالة ، ص 210

قائمة المراجع

1. الإمام أبي عبد الله البخاري – صحيح البخاري ، ط مكتبة الصفا .
2. حسن سحلول (2001) نظريات التلقي ، التأويل الأدبي وقضاياه – اتحاد الكتاب العرب دمشق .– الفصل 1–2.
3. حسن مصطفى سحلول (2003) ، نظريات القراءة – اتحاد الكتاب العرب دمشق.
4. سعد زهران ، الإنسان بين الجوهر والمظهرات ، سلسلة عام المعرفة ع 140.
5. سعيد حسن البحيري (1997) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات .– لبنان : الشركة المصرية العالمية للنشر .
6. عبد الرؤوف بابكر السيد (2007). الاستلاب والفاعلية .– سرت: منشورات جامعة التحدي .
7. عبد الرؤوف ببكر السيد (2007) . ديوان الحروف ، قصيدة الهاجس والحرف.– مجلة المؤتمر ، ع1 .
8. علي أحمد عبد الحميد (2013). فن القراءة على طريق اكتساب الثقافة الراقية .– طرابلس : دار النخلة للنشر .
9. فهد بن صالح الحمود (2006) قراءة القراءة .– ط2 .– الرياض : مكتبة العبيكان
10. مجلة العربي .– ع 527 ، أكتوبر 2002.
11. ياقوت الحموي . معجم الأدباء .– بيروت: دار المشرق ، ج 16.